الاسلام في العالم*

تأليف الدكتور زكى على

مؤلف هذا الكتاب من الشبان القلائل الذين عرفوا بالانكباب على معالجة الشؤون والمشاكل الاسلامية ، يعالجها طوراً بالكتابة فى صحف الشرق والغرب ، وآونة بالخطابة على المنابر فى المجامع . ولطالما قرأ له المصريون كثيراً من المقالات القوية فى الصحف العامة تنبىء عن اهتمامه القوى بهذه الناحية. والمؤلف إلى جانب اهتمامه بالناحية الاسلامية « طبيب » دقيق النظرة . ولقد ظهر أثر تفكيره العلمى الصائب فى كتابه الذى أخرجه هذا الشهر وهو : Islam in the World والذى يعد محاولة طيبة من الدكتور زكى على ، له الجزاء الأوفى عليها

ولقد أوضح المؤلف في مقدمته الدافع على ذلك فقال : « فى سنة ١٩٣١ غادرت مصر إلى أوربة لأول مرة فى بعثة طبية وقد كنت موظفاً كطبيب امتياز وطبيب تخدير فى مستشفى قصر العينى بالقاهرة ... ولم أكن أتوقع أن ستلح علىّ رغبة عنيفة لمسائل أخرى غير الطب ... غير أنى اكتشفت أن فى أوربا جهلا مطبقاً وعدم إدراك للاسلام . ذلك الدين الذى أومن به ، وألفيت أن العلاقات بين الغرب والعالم الاسلامى فى حال من المرض الشديد تستأهل بحث أسبابها ومعالجتها » ولم يحاول المؤلف أن يأتى بآراء جديدة فى سفره هذا ، ولم يعمد إلى محاولة ذلك عمداً ، بل لقد ذهب يعرض آراء الغربيين عرضاً دقيقاً ويستخلص من ثنايا كتاباتهم عن الاسلام ما يدحض به كل شبهة تحك فى نفس أحدهم ، فهو يرى أن النظام الدينى والاجتماعى فى الاسلام ليس بالضيق أو ما يُشَمّ منه ريح التزمت والجمود ، بل إنه فى جوهره مرن ، كما أنه يعمل على النهوض بالحياة الانسانية

ويستعرض المؤلف فى كتابه هذا حياة الرسول لأنه يرى أن لا بد لدراسة هذا الدين وتفهّم مراميه من تفهم حياة صاحبه ، وتلك هى الطريقة التى سار عليها سير أرنولد فى كتابه Preaching of Islam فلقد مهد لانتشار الاسلام بفصل عن «محمد كداعية» وفائدة هذا أن يربط القارىء بين المظاهر العامة والذاتية فى حياة الرجل الذى حمل عبء الرسالة وأداها صادقاً أميناً ، وكان فى حياته الخاصة والعامة المثال الكامل للانسان الفاضل ، والصورة الواضحة الحق للرسول والنبى المبعوث ، وما كان ينطق عن الهوى (إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى)

ثم يعرض المؤلف للاسلام من حيث هو دين ونظام اجتماعى يربط بين الطبقات ويوحد بينها ويتجه بمراميها إلى الغاية المنشودة من الرسالة ، ولقد كتب أحد المستشرقين مرة يقول « إن حياة الشرق تتمثل فى كتابين لا ثالث لهما ، أما أولهما فالقرآن ، وأما ثانيهما فكتاب ألف ليلة وليلة » ... كذلك يتجلى طابع الاسلام الحق وجوهره الخالص من كل زيف أو شائبة فى القرآن وهو « كتاب اضطمّ على مبادىء القانون الاسلامى العام : فهو قانون لدين اجتماعى مدنى تجارى حربى فقهى خلقى تشريعىّ سياسىّ؛ وهو بعد ذلك كتاب له تأثيره الدائم على أذهان المؤمنين الذين هيهات أن يتنكّب بهم الطريق لو أنهم ثابروا على اقتفاء خطاه وأوامره ، وليس فى هذا الكتاب ماينافض العقل » بل إنه ليشجّع الاجتهاد والتخريج . ثم يعرض المؤلف للجهاد (ص ٣٣) فيرى أنه حرب دينية دفاعية ، والجهاد شرعا الحرب في سبيل الدين والذب عن حياضه ، وادخال القوم الجاحدين به فى شريعته .

* Islam in the World ، طبع فى لاهور بالهند (١٩٣٨) ، مكتبة الشيخ محمد أشرف فى سوق كاشميرى

ويتناول الدكتور زكى نظام الحكومة والدولة فى الاسلام وهو من النواحى الهامة فى تاريخ هذا الدين كان له أثره البعيد فى آسيا وأفريقية ، فيتعرّض للجزية والزكاة والخراج ، وهى الأسس الاقتصادية التى تقوم عليها الحكومة فى الدول الاسلامية ، ويرى المؤلف أن الجزية ليست ضريبة تستؤدى من أهل الذمة كعقاب لهم بل إنها كانت نظير القيام على حفظ حقوقهم وبدلا من قيامهم بالخدمة الحربية المفروضة على كل مسلم (ص ٥٥) ، وان مرمى النظام الاسلامى وغايته ومجهوده أن يمد يد العون للنوع البشرى ليوفر له أسباب الراحة الروحية ، ويرقى به فى سبيل الكمال والسعادة .

ومن الفصول القوية التى دبجها الدكتور زكى على فصله عن تطوّر الاسلام Ovolution of Islam ، وهو يلمّ فيه بما انتاب الاسلام والمسلمين من أهوال جسام فى عصور التاريخ المختلفة ، فلقد اشتدت عداوة المغول له فقاموا بتدمير مراكزه الكبرى فى قسوة لم يعرف التاريخ لها مثيلا حتى ليكاد ينكرها من يقرأها بعد حدوثها كما يقول ابن الأثير ، وإن الدارس لتاريخ المغول فى الشرق والمماليك فى مصر ليرى هذه الضراوة الشديدة من ضراوة التتر ومحالفتهم لدول الغرب المسيحية للقضاء على الاسلام ممثلا فى دولة المماليك ، ولم يخفف من حدتهم هذه اسلامهم .

وكذلك انتابت الاسلامَ أخطارٌ جمة تعرّض لها فكان ذلك الصراع العنيف بين الشرق والغرب ، يدفع كلا الجانبين حماسة دينية وتعصّب مُسِلح ، وهذا هو المعروف بالحروب الصليبية ، فلقد امتشق فيها الغربُ الحسام ضد الشرق والاسلام واتحدت شعوبه المتنافرة تحت الصليب تدفعها من الخلف حينا روح دينية ، وأحيانا كثيرة تحثّها المطامع السياسية ، ولكنها فى كل ذلك تلبس مسوح الدين . ويرى بعض الكتاب أن هجوم التتر وتدميرهم الخلافة العباسية فى بغداد انما هو ضرورة اقتضتها حياة القوم فلقد انغمروا فى بلهنية من العيش وأغرقوا فى اللذات ورفاهية المادة ، فكان تجديد الاسلام بتدمير هذه الحضارة وإقامة أخرى مكانها وزعيم هذا الرأى الكاتب الفرنسى Cahun ومهما يكن من صواب رأيه أو خطله فإن الحقيقة الواضحة هى أن الاسلام لم يَفْنَ بعد هذا الهجوم بل تجدّد وعاد قويا

أما دراسته عن « الاسلام فى الغرب » فيعرض فيها لآراء الكتاب الأوربيين أمثال رينان وولسون كاش وأرنولد وكريمر ويظهر فى تضاعيف هذا الفصل ما انطوت عليه نفس الكاتب من حماسة بالغة للإسلام خرجت به أحياناً من موقف العرض إلى الدفاع ، فأكرم بهذه الروح التى أملت عليه ما أملت من نقاش ودفاع كريمين . وبهذا الفصل يختم المؤلف الفاضل القسم الأول من كتابه وقد خصصه للتعريف بالاسلام ثم ، يليه القسم الثانى والأخير منه وهو دراسة تحليلية للنواحى الفكرية فى الاسلام ومستقبله فى العالم كدين وكنظام اجتماعى وسياسى ، وهو ينظر بعين الرضا والاطمئنان للحركة التجديدية فى الأدبين الفارسى والتركى وما يترتب عليهما من إحياء للماضى الحافل بصور المجد والعظمة

ويختم المؤلف كتابه بدراسة قيمة عن (الاسلام فى العالم) فيرى أنه لا يستطاع الفصل بين السياسة والدين فيه بل إنهما ليتعاونان معاً فى ميادين الاستقلال الاقتصادي والسياسى والاجتماعى (ص ٣٩٧) ويضرب المثل على صحة هذا بالملك العظيم ابن سعود فلقد نجح في إقامة دعائم مملكته على أسس مستمدّة من القرآن والسنة ، حتى لقد أصبحت الحجاز اليوم حكومة رشيدة قوية محترمة ، وفى ذلك أبلغ دليل على تعاون السياسة والدين وعدم تضاربهما ، على عكس الواقع فى الغرب حيث لا يستطاع — بحال من الأحوال — التوفيق بين الدولة والكنيسة .

ويتساءل المؤلف فى ختام بحثه هذا : هل يمكن إيجاد التعاون والتوفيق بين الاسلام والغرب ؟ ... ونظرته لهذه الناحية نظرة المتفائل ؛ ويذهب مدللا على رأيه هذا بحجج بعضها — فى حاجة إلى نقاش وإن كانت تنتهي أخيراً إلى الموافقة على رأيه .

* * *

وبعد فهذا عرض موجز لكتاب ألّفه شاب مصرى أوقف جهده وقلمه وتفكيره على ناحية يستأهل من أجلها شكر الشرقيين والناطقين بالضاد فى كل صقع وناد بلا تفرقة بين الملل والأديان ، ذلك لأن الشرق اليوم هو العالم الاسلامى

حسن حبشى